البـــابُ الأولـــ

أسرار خلف
الجـــدران

الفصل الأول

الزواج أو الانتحار

(*) ١ - النساء لا تؤنس الوحدة دائما . فهى تدخل وحدها أول الأمر . وإذا دخلت تدخل خلفها كل متاعب الدنيا .

١ - (*)النساء لا تؤنس الوحدة دائما . فهى تدخل وحدها أول الأمر . وإذا دخلت تدخل خلفها كل متاعب الدنيا .

- أول فشل فى الحب
- الفتاة التى كونت عدو المرأة
- إبطال الحكيم لمحاولة هدى شعراوى فتح فرع للحركة النسائية فى بيته
- كروان الإذاعة يختار للحكيم زوجته

(*) هذه الكلمة وما سوف يليها من كلمات بخط الحكيم ، هى بعض إجاباته على بعض الأسئلة التى أعدها المؤلف .

يرى توفيق الحكيم أن المرأة هى السجان الدائم لنا نحن الرجال ، تحبسنا بين جدران بطنها ونحن أجنة ، فإذا خرجنا إلى الحياة وقعنا بين سياج حجرها ونحن أطفال ، فإذا اجتزنا بالكبر ذلك السياج تلقفتنا أغلال ذراعيها ، فطوقت أعناقنا حتى الممات .

وإذا لم يكن للحكيم مفر من جدران بطن أمه وسياج حجرها ، فقد حاول ألا يقع بين أغلال ذراعى المرأة المطوقة (الزوجة) ، ولكنه وإن استطاع ذلك لبعض الوقت إلا أنه لم ينجح فى ذلك كل الوقت ، لأن الوحدة كانت مريرة بالنسبة له كلما تقدمت به السن – حتى نجحت المرأة فى إدخاله سجن الزوجية ، ولكن الحكيم جعله سجنا بلا أبواب ولا حراس ، سجنا بشروطه هو لا بشروطها هى ، ورغم ذلك فقد انتوى الفرار بعد الزواج بثلاثة شهور على أقصى تقدير ، ولكن الدخول فى قفص الزوجية ليس كالخروج منه ، فلم يفارق شريكة حياته إلا بعد موتها .

وقد كان لإقدامه على الزواج قصة عجيبة .

* * *

رأى الحكيم أن الحياة لا معنى لها بغيرا مرأة مهما كانت عيوبها ، ولذلك اكتشف أن حياته أيضاً لا يمكن أن تستمر بغير امرأة مع الأسف الشديد كما كان يقول ، وعاش فى حوار مع القدر الذى قال له : جرب أن تعيش بعيداً عنها أو ليكن تفكيرك خاليا منها ، ولكن الحكيم لم يستطع إلى درجة أنه ظل مترددا فى الاختيار بين الانتحار أو الزواج ! ولكن حبه للحياة جعل فكرة الزواج تتغلب على تفكيره إذ وجد أن ذلك أهون الضررين ،

ولكن ممن يتزوج ؟ صحيح أنه عرف كثيرات ، كإبنة الجيران « سنية » فى سن الصبا والشباب ، وفى باريس تعرف وأحب ، ولكنه لم يرتبط بواحدة منهن ، فقد كان فى انطلاقه بحثا عن كنوز الفكر والثقافة والفن ، لا يريد أن يربط نفسه بذلك « الرباط المقدس » الذى يقيد حريته ويحد من انطلاقه ، فضلا عن أنه لم يجد من تحبه – إذا أحبها .

لقد عرف الشقاء فى الحب لأول مرة فى باريس ، وإن حاول أن يخفى ذلك مبررا شقاءه بدق والده فوق رأسه يطلب منه أن يبرق إليه بنجاحه فى الحصول على دكتوراه القانون ، مما جعله حائرا يبحث عن نفسه الضائعة بين رغبة والده له ، ورغبته هو فى طريق الفن الذى ساقه إلى حب الفتاة الباريسية « إيما دوران » التى حاولت أن تنسى معه هجر حبيبها لها ، فلما عاد إليها وعادت إليه ، ودعت كأس توفيق الحكيم بأن حطمته فوق قلبه بعد معاشرته أربعة عشر يوما ، ولم تترفق به ، فتركت له رسالة تقول له فيها :

أتمنى أنى ما عشت قط هذين الأسبوعين .

وهكذا جاء فشل الحكيم فى حبه الباريسى ليولد عنده فكرة مشاكسة المرأة برفع شعار العداء لها ، فتجده يسجل على نفسه فى باريس أقوالا مثل :

○ إنى لم أخلق لأسير فى الحياة وامرأة معلقة بذراعى .

○ المرأة عندى يجب أن تكون فى « الحريم » أو على الأقل لا يكون لها دخل كبير فى حياتى .

* * *

إنها نفس الأفكار التى رددها توفيق الحكيم حينما حدد شروطه للزواج ، عندما أضطر إليه فى الأربعينات من عمره ، ولكنه لم يكن زواجا

عن حب ، بل عن تفكير وعقل ، ذلك لأنه يرى أن هناك فرقا بين الحب والزواج ، وإذا انتهى الحب إلى الزواج فلا بأس ، ولكنه يرى فى نفس الوقت أن هناك أشياء يجب أن تكون موجودة فى الزوجة وهى غير موجودة فى الحبيبة لأن « الحب » مرض ، والزواج صحة ، والمرض والصحة لا يجتمعان .

و « الزواج شىء جليل مقدس ، والحب عملة فى السوق ، أما الحياة الزوجية فإنها تجميد عملة الحب فى سند غير قابل للتحويل وله فوائد متجددة » . ولذلك كان زواج توفيق الحكيم عن طريق قاضى العقل الذى يعطى عدالة وأحكاما وحياة منطقية مرتبة ، لا محامى الحب الذى يجمل الأشياء ويترافع فيما لا يجب الترافع فيه ، حيث عين المحب عن عيوب حبيبه كليلة .

ولم يكن الحكيم كغيره ممن تثقفوا بالثقافة الفرنسية وعادوا بزوجة من باريس ، سأله التلميذ(*) عن السبب ؟

فقال : لأننى مثل والدى من رجال الشرق محافظ إلى حد الانغلاق فيما يتعلق بشريكة حياتى ، ومن الصعب أن أجد من توافق على شروطى من بنات باريس ، فقد تربين على الحرية والانطلاق ، هذا بالإضافة إلى أننى لست من أنصار الزواج من أجنبيات ، قد تكون هناك تجارب ناجحة لزواج شخصيات مرموقة من أجنبيات على غير الجنسية والديانة ، ولكن رأيى الشخصى أن يتزوج المصرى مصرية مثله ، مع انسجام فى الثقافة والتفكير ، حتى يكون هناك تكافؤ وتفاهم . لكى لا يحدث فى الأسرة بين الأبناء انفصال وبلبلة بين طبيعتين وجنسيتين ..

(*) التلميذ هنا هو المؤلف الذى يحاور الأستاذ توفيق الحكيم على مدى صفحات الكتاب .

وقد بحث الحكيم عن زوجة من بنى وطنه ، وقد أجهده البحث ، فعلى رأسه لافتة « عدو المرأة » ولذلك أغلقت أبواب الزواج دونه ، فقد أخذت كل أسرة هذه التهمة مأخذ الجد ، حتى أن كل صديق كلفه أن يبحث له عن عروس ، فشل فى مهمته وعاد قائلاً :

– نعمل لك إيه ؟ النسوان خايفة منك .

فكل امرأة تتصور أنه وحش سيأكلها أو سفاح سيخنقها ، حتى جاء ذات يوم صديق عزيز متطوع رثى لحال الحكيم وصمم على أن يجد له عروساً بأى طريقة ، ولكنه عاد بعد أيام يقول له :

أنا كنت على وشك ضرب صديق قديم بحذائى من أجلك ! فعندما عرف هذا الصديق القديم أن صديقه جاء لخطبة ابنته الكبرى للكاتب المشهور توفيق الحكيم ، فإذا به ينتفض غضباً ويصيح به فى سخط وهياج :

ما هذا التهريج يارجل .. هل أصابك الجنون حتى تتصور أننى أزوج ابنتى لهذا الفنان البوهيمى الحشاش الأفيونجى !.

فبهت صديق الحكيم وقال : حشاش أفيونجى ، دا طول عمره ما دخن سيجارة .

فقال الصديق القديم : اسكت بقى واقفل الموضوع .. أنا كنت فاكرك إنك صديق مخلص عاقل .. عمرى ما كنت أصدق انك تطلب منى أوقع بنتى الغالية الوقعة السودة الهباب دى !

فنهض صديق الحكيم محتجاً وهو يصيح : وأنا كنت فاكر إنك شخص مثقف من بنى آدم .. عمرى ما كنت أصدق انك حيوان جاهل بالدرجة دى .. إخص عليك منحط مغفل عديم الفهم والإدراك .. سلام عليكم .

وخرج من بيته وقد تمت القطيعة بينها ، بسبب توفيق الحكيم ، الذى يئس من الزواج وهو الذى كان محل ترحيب العائلات يوم كان وكيلاً

للنيابة ، ولكنه كان يرفض ، لانشغاله بمحاولة تحقيق ذاته فى الفن ، بالإضافة إلى أن من ترشحهن أمه له ، للزواج كانت تختارهن على غير الأساس الذى يريده ابنها ، فقد وضعت فى رأسها خطة اخرى ، هى أن تزوجه من عروس غنية وارثة مما يؤمن حياته ويحيطها بالضمان ، ولكن توفيق الحكيم الذى كان يرفض بالأمس ، صار هو مرفوضاً اليوم ، حتى طرد فكرة الزواج عن ذهنه ، ولكن إلى حين ، لأنه كان يشعر بالفراغ فى شقته الواسعة بجاردن سيتى ، المطلة على نيل مصر الخالد ، فعاودته فكرة الزواج من جديد ، ولم يجد حلا سوى اللجوء إلى زعيمة الحركة النسائية ، هدى شعراوى .

* * *

ولكن كيف يجرؤ على ذلك وهو عدوالمرأة . لقد اضطر إلى طلب الهدنة ، بل التوبة والصلح ، فقام بزيارة هدى شعراوى وقال لها : أطلب مساعدتك فى الزواج .. زوجة واحدة لا أربع والله العظيم (فقد كان الحكيم قد كتب ضمن ما كتب ، يدعو إلى ضرورة زواج الرجل بأربع نساء ، مثل السيارة التى لا تستطيع السير إلا بأربع عجلات .

فقالت هدى شعراوى : هل تعلن توبتك عن معاداة المرأة .

فقال الحكيم : تبت ولن أعاديها أبداً .

وعندما تأكدت من صدق نيته ، وعدته خيراً ، ثم قدمت له واحدة من المقربات إليها العاملات معها فى الحركة النسائية ، فدب القلق فى نفس توفيق الحكيم ، وأدرك أن مثل هذه الزوجة سوف تجعل من بيته فرعاً تابعاً لحزب النساء .

وهكذا لم تنجح وساطة هدى شعراوى ولا محاولات أصدقاء آخرين حاولوا مساعدته فى العثور على زوجة تناسب طبعه ، أى أن تكون بجانبه وتشعره دائماً بأنها غير موجودة ، وترك الله ليختار له الزوجة المناسبة .

حتى سمع الإذاعى الراحل محمد فتحى ، برغبة توفيق الحكيم فى الزواج ، فرشح له إحدى السيدات ، وتم اللقاء بينهما بمعرفته ، أكثر من مرة ، حتى حدث الانسجام بينهما .

إنها السيدة « سيادة بيومى » التى طلقت من زوجها خريج التجارة العليا ، بينما كانت اهتماماتها أدبية وثقافية ، فكان استمرار التفاهم بينهما صعباً ، رغم أن ثمرة ذلك الزواج كانت ابنتين ، هما ، ناجا ، ونورا ، وكانت هذه السيدة فى الثلاثين من عمرها ، والحكيم فى الخامسة والأربعين .

وكانت للحكيم شروطه كفنان ، قبل أن يدخل قفص الزوجية ، فطبيعته كفنان يقدس الحرية ، كان لابد لمن اختارها لحياته أن تشعره دائماً بأنها وهى موجودة كأنها ليست موجودة ، وألا تخرج معه إلى الناس والمجتمع ، أو حتى فى نزهة ، وأن تشعره وهو متزوج كأنه غير متزوج ، وألا يشعر أحد أنه تزوج ، وأن تبعد عنه مسئوليات الحياة الزوجية ومشاكل الحياة اليومية ومتطلباتها .

صحيح أن الزواج مشاركة فى المسئولية ولكن هذا إذا كان زواجاً عادياً ، أما زوجة الفنان فدورها خطير لأنها ستتعامل مع طفل كبير ، وقد قبلت من اختارها الحكيم كل شروطه ، ومع ذلك فقد ظلت هذه السيدة مترددة ، لأنها أدركت أنها ستتعامل مع طفل كبير متقلب الأحوال والأطوار ، لذلك أرادت أن تطمئن وتستوثق مرة أخرى من حقيقة رغبة الحكيم وصدقه فى الزواج منها ، فطلبت منه ، قبل إتمام العقد وهى تخلع الخاتم من إصبعها أن يعيد التفكير جيداً . فطمأنها أنه ليس فى مبدأ الشباب حتى تؤثر فى قراره أى ظروف أو أهواء .

وتمت مراسم عقد القران دون « زفة » ، فالحكيم يحب الهدوء ويكره

الضجيج حتى ولو كان فى مناسبة زواج ، ولو قد تم شئ من أمور « الزفة » لعاد الحكيم فى قراره ، وترك المكان دون استئذان .

ولكن توفيق الحكيم كان متفقاً مع عروسه على كل شئ ، وكان التفاهم إلى درجة أنه لم يكن هناك كلام أو مغالاة فى مسألة « المهور » .

سأله التلميذ : كيف حدث ذلك ؟ فقال : تلك مسألة خارجة عن واجبات الزوجية وأصولها لأن الدين الإسلامى راعى ذلك ولم يجعل للمهر ومقداره أى أهمية فى الزواج ، يكفى تقديم خاتم من الحديد ، وأحيانا لا يجد الخطيب ما يقدمه لزوجه إلا رداءه الذى عليه ، وفى بعض الأحوال كان يتقاسم هذا الرداء مع زوجته ، فيجب أن يترك أمر المهر وما يشابهه من مطالب الزواج إلى ظروف كل منهما بالتفاهم وليس بالإجبار أو مراعاة تقاليد سحيقة ، ولم تكن هناك مشكلة فى الأصل بالنسبة لزواجى ، ولو كانت مشكلة فستكون مذللة ما دامت الزوجة عندها طبيعة مراعاة الزوج فى عمله وحريته ، فإنها لا شك ستقبل هذه الظروف المالية إذا كانت ستقف فى سبيل إتمام زواجى ، فالتى تنازلت عن حريتها مراعاة لحرية زوجها فى عمله ليست تجد صعوبة فى أن تتنازل أيضاً عن بعض مطالبها المادية إذا شعرت أن زوجها لا يستطيع ذلك ، فالعبرة هنا فى الزوجة وحسن تقديرها للأمور هى وأسرتها فى عدم التقيد بالمظاهر التقليدية والعادات القديمة فى التدخل فى هذه الأمور ، ويجب أن يرجعوا إذا كانوا من المسلمين إلى آداب الخطوبة والزواج فى الإسلام ، والأحاديث الشريفة فى ذلك ، وسيجدون هذا التساهل العجيب البعيد عن النظرة المادية كل البعد ، ولذلك لم أفكر فى تكاليف الزواج لا أنا ولا هى ولا أسرتها ، ولذلك كان كل شئ يسير طبقاً لظروفنا التى لم تكن هذه المسائل ذات شأن فيها لأن المشكلة الأساسية عندى فى الزواج والتى فهمتها تمام الفهم هى وأسرتها ، هى مراعاة حرية الفنان ، وهذه الحرية كانت مكفولة لذا

استمر الزواج لأن الحرية كانت الشرط الأساسى .

وتم الزواج فى ٦ يونيو ١٩٤٦ ، وكان عمر الحكيم ٤٥ سنة ، والزوجة فى الثلاثين مع عمرها ، سن متأخر للزواج فى مثل هذا الوقت من الأربعينات من القرن العشرين حيث لم تكن الأمور قد تعقدت بعد كما فى أواخره بالنسبة لزواج الشباب ، ولكنها ظروف الحكيم الخاصة فى بحثه عن شخصيته كفنان أولا ، ثم بعد ذلك يأتى الزواج ، وسأله التلميذ عما إذا كان نادما ؟ فقال : « إننى نادم على تأخرى فى الزواج ، فلو تزوجت فى سن مبكرة لكان لى الآن أحفاد كثيرون وأسرة كبيرة ، ولذلك فإننى اليوم من دعاة الزواج المبكر وأحث الشباب على الإسراع فى العثور على نصفهم الثانى ، ولذلك فإن بقائى إلى الخامسة والأربعين من العمر دون زواج كان بلا مبرر ، أجل إنى اتساءل بين الحين والآخر : لماذا تزوجت فى مثل هذه السن المتأخرة ؟ ولقد قالت لى أمى ذات يوم : من الأفضل ألا تتزوج أبداً بعدما تأخرت طوال هذه السنوات » ، وكان فى ظنها أن العزوبية أفضل وأسلم من زواج الشيخوخة .

ولكن هكذا جرت الأقدار وتزوج الحكيم متأخراً ولكنه لا ينصح الشباب أن يحذو حذوه ، وألا يتأخروا عن الزواج مثله ، واستدركه التلميذ : ولكن ظروف الحياة الصعبة لا تجعل للمستجيبين لدعوة الزواج المبكر ، القدرة على الزواج ؟ فقال : « لابد من تعاون الفتى والفتاة على بناء حياتهما فى مسيرة الحياة من أولها بإنشائها معاً ، متعاونان بالعمل كل حسب امكانياته للحصول على ما يستطيعان المشاركة به فى بناء عش الزوجية ، لأنه فى حالة عدم وجود إمكانية لإنشاء حياة زوجية بالطرق التقليدية فلابد من أن يقوم الزواج على العمل المشترك بين الزوج وزوجته للحصول على موارد مشتركة ، وإلا فلينتظر كل منهما تحسن حالته المعيشية ، ولذلك يكون الزواج طبيعياً للمرأة فى سن الخامسة والعشرين

تقريبا ، وبالنسبة للرجل فى حدود الثلاثين حتى يستطيع أن يكون قد كون نفسه ، أما الزواج المبكر جداً الذى يقوم على العاطفة فقط دون استعداد له فهو فى غاية الخطورة وقلما يعيش طويلا ، فالزواج هو عمل انشائى كأى مشروع ، ولذلك لابد له من الإعداد الواعى لتأسيسه على أساس سليم » .

وهكذا كان توفيق الحكيم ناضجاً هو وزوجته عندماتزوجا ، فكيف كانت حياتهما خلف الجدران ؟

الفصل الثانى

يازوجتى كونى أنانية !

- خطة للزواج لمدة ثلاثة شهور .
- حجرة لنوم الزوج وأخرى لنوم الزوجة
- الصراصير الملهمة .
- لقطة من حجرة النوم .

لم يشأ توفيق الحكيم أن يعلم أحد بأمر زواجه ، وكان ذلك شرطاً من شروط زواجه ، ولذلك فإنه فى نفس يوم الزواج لم يغير شيئاً من نظام حياته المعتادة .

فقد تزوج وخرج من بيته ليقضى سهرته مع أصدقائه كعادته ، فلم يلحظوا عليه أى تغيير ، فلم يعد إلى منزله إلا فى الساعة الثالثة صباحاً .

وقد عاش توفيق الحكيم مع زوجته أكثر من ثلاثين سنة ، وماتت دون أن يدرى أحد إلا القليلين الذين اكتشفوا زواج « عدو المرأة » ، وكان اكتشافاً متأخراً .

ومع بداية حياة الحكيم الزوجية بدأ حنينه إلى حياة العزوبية والحرية التى اعتادها دائماً . فقد قرر ألا تطول مدة زواجه على ثلاثة شهور ، وهوما يكفى لدراسة تجربة الزواج ، ولكن مدة الزواج استمرت ثلاثين سنة ، حتى ماتت الزوجة وهو شيخ فى أشد الحاجة إليها .

* * *

ولم يندم الحكيم على زواجه ، فقد كان موفقاً ، فالزوجة احترمت شروطه إلى أبعد حد ممكن ، وإذا كانت حواء الجدة قد أخرجت آدم من الجنة فإن حواء اليوم بعد ملايين وملايين السنين قد تعلمت الحكمة فلن تخرج آدمها الجديد من جنة سجنها له فى بيت الزوجية ، ولكن سجن الحكيم كان بغير سجان ، فلم تلحق زوجته الضرر المحسوس بنشاطه الفنى ، وهذا هو الذى كفل لزواجه الاستمرار ، ولو كان قد شعر قليلاً ولو لعدة أيام أن هذا الزواج قد كان له تأثير فى إنتاجه الفنى لما استمر لحظة واحدة ، ولكنه لم يؤثر على فنه ولا على حرية تنقله بما يجعله يضيق به

فيكسر قيوده ، فقد كان يفعل ما يريد وينتج كما يشاء فى أى وقت ، وحجرته التى يعمل بها عندما يدخلها ويغلق بابها على نفسه بالعشر ساعات ليقرأ أو يكتب ، لا تسأله زوجته كيف ولماذا ، ولا تتأفف ، وكان يحثها على مغادرة البيت حين يكون مشغولاً بالكتابة ، ويقول لها :

ألا تذهبين لرؤية أهلك ؟! فتفهم ماذا يريد بهذه الاشارة ، و عندما يعود إلى المنزل قبل قرب الفجر ، لا تسأله لماذا تغيب أو تأخر ، وتقديرا من الحكيم لزوجته كان يحاول ألا يشعرها بعودته فى هذا الوقت المتأخر ، محافظة على شعورها ، فيدخل إلى حجرته مباشرة ، فقد كانت له حجرة نوم خاصة ، ومثلها لزوجته ، لزوم تأجيج نار الشوق ، فيذهب أحدهما للآخر إذا شعر برغبة فى اللقاء .

وذات يوم خميس ، وهو اليوم الذى كان معتادا أن يقضيه مع أسرته من كل أسبوع ، كانت الزوجة فى ذلك اليوم عند أمها المريضة ، وخرج الحكيم وعاد متأخراً عند منتصف الليل ، وضبطته ابنته زينب وكانت لا تزال فى المرحلة الثانوية ، فقالت له فى جرأة تحسد عليها :

سأخبر ماما أنك عدت متأخراً .

فقال لها مداعباً : إذن فماذا تطلبين ثمناً لسكوتك ؟ فطلبت جنيهًا ، وكان هذا هو أقصى مبلغ يصل إليه حلم فتاة فى مثل سنها فى ذلك الزمان الذى كانت فيه للجنيه قيمة .

وأحبت زينب أن تستخدم هذا السر فى كل مرة تريد فيها الحصول على مثل هذا المبلغ ، ولكن أمها كانت قد عرفت من زوج ابنتها « نورا » الذى علم من أحد أصدقائه أن الحكيم فى تلك الليلة كان مع أصدقائه فى « شبرد » فظن الحكيم أن زوجته عرفت بتأخره من ابنتها ، فقطع عليها سبيل استغلالها لهذا السر الذى لم يعد سراً .

ولكن الزوجة لم تكن تتحدث فى مثل هذه الأمور ، حتى أنها عندما

شاهدته بناء على بلاغ من أحد أقاربها ، مع فتاة شقراء فى أحد الفنادق لم تناقشه فى هذا الموضوع إلا بعد ذلك بسنوات فأخبرها أنها كانت صحفية أجنبية تجرى حواراً معه . لقد احترمت زوجة الحكيم شروط حريته إلى أبعد الحدود .

ولذلك يقول الحكيم عندما ناقشه التلميذ فى هذه الجزئية من حياته الزوجية :

إن هذا هو الذى جعلنى لا أشعر إطلاقاً بأنى فى سجن الزواج ، وإذا كان هذا السجن موجوداً كما يقال فقد كان سجناً مفتوح الأبواب ليس به سجان يسألنى :

متى خرجت ، ومتى دخلت ؟

ولو شعرت بوجود أى سؤال عن الخروج أو الدخول ، أو التأخر ، أو التضجر من عملى واهتمامى به ، وانعزالى بالعمل والفن عن كل ما حولى ، لما وجدتنى الزوجة والأولاد بينهم لحظة واحدة ، لأنى سأكون كالسجين الذى يفر من أول يوم ، ويرمى نفسه من النافذة بأى طريقة .

ولكن الحقيقة أن الزواج عندى لم يكن له أبواب ، لأن الزوجة أدركت أن كل ما يهمنى هو عملى ، وهذا العمل يقتضى منى أن أكون حراً كل الحرية ، وهذا هو الشرط الأساسى للزواج ، لا أقول للفنان وحده ، بل لكل رجل يهتم بعمله ، فيجب على كل زوجة أن تشعر بأن حياتها الزوجية لا تقوم إلا على شعور الزوج بأنه حر تمام الحرية » .

وهذه الحرية التى ضمنتها ، زوجة الحكيم له ، جعلته بعيداً عنها فى أكثر الأوقات ، ولذلك فإنه كان كثيراً ما يحاول أن ينقص قدره فيقول لها : زمانك يا أم إسماعيل ندمانة لأنك أخذت مقلب ! فتقول له بثقة المرأة التى لم تهزم فى معركتها مع الرجل أبدا : ليكن هذا رأيك ولكنك عندى بالدنيا كلها .

فقد كانت زوجة تعرف قيمة زوجها ، وكان هو يعرف أيضا قيمتها .

وقد سأله التلميذ : ألم تكن تتذكر زوجتك بهدية فى مناسبة من المناسبات ؟

فقال : لم أكن أذكر المناسبات الخاصة أو المناسبات العامة ، ولا أقبل من يذكرنى بها ، وكذلك لا أحب أن أذكر مناسبات الآخرين ، وقد تعودت الزوجة على ذلك ، ولذلك كنت فى حرية زوجية مطلقة ، وهى التى جعلتنى أستمر فى الزواج دون أن أشعر بوجوده ، ولا أنصح لأى زوج أن يكون مثلى ، ولكن أنصح لكل زوجة أن تضمن الحرية التامة لزوجها لكى تبقى الحياة الزوجية مستمرة ، وأعتقد أن أى زوج آخر تعامله زوجته بهذه الحرية فإنه لن تكون له طبيعتى فى إهمال المناسبات ، بل إنه رغماً عنه وعنها سيتقدم إليها بهدية تشعرها بأنه مقدر لمعاملتها له بهذا التسامح فى استخدام حريته المطلقة ..

وهذا ما فعله الحكيم استثناء وإن لم يرتبط تعبيره عن تقديره لزوجته بمناسبات معينة لأن المناسبة هنا كانت هى إظهار عرفانه لما وفرته له زوجته من ظروف مناسبة لإنتاجه الفنى ، فكان يقدم لها بعض الهدايا من الذهب بل إنه قد أهداها ذات مرة عقداً من « الألماظ » ، أضطرت إلى بيعه للإنفاق على شراء الآلات الموسيقية لإبنها إسماعيل ، دون أن يعرف الحكيم شيئا عن ذلك ، حتى لا تغضبه أو تجرح مشاعره بتفريطها فى هداياه إليها ، حتى لو كان ذلك من أجل إبنها، ولعل إنشغال زوجة الحكيم بأبنائها عنه، كان مما يعوضها عن إنشغاله عنها أكثر مما يجب .. ولا تستطيع أى حياة زوجية أن تتحمله مما يؤدى إلى الملل .

فهل كان هناك ملل فى حياة توفيق الحكيم الزوجية ؟

سأله التلميذ ، فأجابه : الملل فى الحياة الزوجية قليل إذا كان هناك أطفال ، لأن الأطفال لا يمكن أن يشعروا الزوجة الأم بأى وقت للملل ،

لأن الإنشغال بهم يستوعب كل وقتها ، أما الملل فيكون عندما تكون الزوجة بمفردها ، فإذا تأخر عنها الزوج وأرادت المحافظة على الزوجية فعليها أن تخترع لنفسها عملاً أو هواية أو أى شيء تملأ به وقت الفراغ لحين أن تسمح الظروف لزوجها بالحضور ، فهذا واجب المرأة : أن تبحث هى عما يملأ فراغها لا أن تحمل زوجها هذه المسئولية ويكون هذا سبباً من أسباب الخلاف الذى يؤدى إلى الانفصال ، وأنا لم أعرف هذا مطلقا ولم تشعرنى زوجتى بأى ملل » .

بل إن الحكيم وقد كان ينام فى حجرة منفصلة عن زوجته ، ويغيب عنها لمدة سنة فى باريس أثناء عمله كمندوب لليونسكو ، لم تكن زوجته تشكو من هذا الوضع لأنها كانت تتفهمه ، خاصة وأنها كانت مثقفة ، وقارئة جيدة للأدب العربى متذوقة للشعر ، وتحفظ بعض قديمه وحديثه ، وتجيد الفرنسية ، ولذلك عندما أخذها الحكيم إلى باريس فى أحد المرات ، أذهلته بقدراتها الثقافية ، ففى متحف اللوفر ، كانت تتفحص الصور بكل صبر واهتمام ، ولا تريد أن تفارق المتحف طوال النهار ، وفى دار الأوبرا ، لم يستطع الحكيم الاستمرار فى المتابعة وأراد الانصراف أثناء الاستراحة لكى ينام ، بينما كانت هى متيقظة تريد الاستمرار لمتابعة القسم الثانى .

ومع الاهتمامات الثقافية لزوجة الحكيم ، لم تكن تنسى طبيعتها كامرأة فى التجول بين المحلات وشراء ما يروق لها من محلات باريس ، لها وللأولاد ، مما جعل الحكيم يقول إنها أفسدت ميزانيته . ولكن ذلك لم يكن ينسى الحكيم ميزة زوجته ، بعقليتها المتفتحة ، مما جعله يدخل معها فى كثير من الأحيان فى الأوقات التى ينفردان فيها ، فى مناقشات أدبية وفكرية وثقافية ، كان يستغنى بها عن أبنائه ، وكان من الطبيعى للزوجة المثقفة أن تقرأ كتبه ومقالاته ، وكانت لها عليها ملاحظات ، وكان لا ينسى لها الهدوء والتفرغ الذى أتاحته له فى تأليف الكتب التى أخرجها بعد

الزواج ، ولذلك قال عنها إنها « خير زوجة » فى « سجن العمر » الذى أهدى لها نسخة منه قال فيها :

إلى التى عاونتنى وساعدتنى فى إخراج هذا الكتاب وإنتاجه لما دبرته لى من جو الهدوء التام بابتعادها عن البيت » !

وفى إهدائه لها كتابه « شمس النهار » . كتب لها معترفا لأول مرة « إلى زوجتى الحبيبة شمس النهار » . ولم تكن إهداءات الحكيم لزوجته تخلو من روح الدعابة ، فيهديها كتاب « مصير صرصار » ، قائلا لها :

إلى زوجتى الحبيبة التى تركت الصراصير حولى لتلهمنى » !

* * *

ولم تكن زوجة الحكيم تستغل اسمه لقضاء شىء من أمورها ، كما لم تكن تفتح أدراج مكتبه أو تفتش جيوبه ، وكانت تحصل على ما تريده منه ، من نقود ، أو حين يفشل أبناؤها فى الحصول على النقود منه ، فتطلب « ناجا » إبنتها الكبرى ، نقوداً لها أو لإخوتها حينما يوسطونها فى ذلك ، فيقول لها الحكيم :

من أجل ماذا .. هى بعثرة فلوس .. ألا تتعلمون النظام ؟ .

أو يقول لها : فلوس ؟ من أين ؟ .. هل تركت لى أمكم شيئا ؟ .

فتذهب « ناجا » إلى أمها شاكية ، وعندما تهم بالتدخل يقول لها الأبناء :

يا ماما أريحى نفسك لن تحصلى منه على شىء .

ولكنها تقول لهم بثقة : إنتظروني .

فتدخل على الحكيم وتخرج وفى يدها « الشيك » ، ولكن أحياناً كان الحكيم لا يستجيب لها ، ويثور ، فقد أعطاها مصروف الشهر حتى لا تشغله بمسئوليات البيت والإنفاق عليه ، فما لزوم أى فلوس زيادة تطلبها ؟ .

هكذا كان الحكيم يتساءل ، لأنه لم يكن يعرف أن مصاريف الأولاد كلما كبروا كانت تزداد .

ولكن الحكيم لم يكن يشعر بذلك لأنه لا يشترى شيئاً ولكنه كان يحس بزيادة الأسعار كلما طالبته زوجته بنقود جديدة لمصاريف البيت والأولاد ، ولذلك حينما أخرج كتابه « بنك القلق » ، أهداه إلى زوجته قائلاً : أهدى هذا البنك إلى زوجتى حتى لا تطالبنى بنقود جديدة » !

ولكنها كمسئولة عن ميزانية البيت لم تستطع إلا أن تطالبه بالمزيد ، ولم يكن أمام الحكيم إلا أن يستجيب فى النهاية ، ويتراجع بعض الأحيان التى قد يبدو فيها غير مقتنع باتجاهات الإنفاق ، فهو لم يكن يملك سوى أن يلبى لزوجته ما تطلبه ، وإلا فإنه يشعر بالضيق إذا لم يستجب لما تطلبه ، ولذلك كان يقول : أنا أتفاءل حين أرضيها » ، ولهذا حينما يراها أبناؤها وقد خرجت من حجرة الحكيم وفى يدها « الشيك » يسألونها فى دهشة : كيف حصلت عليه ؟ !

وإلى جانب رغبة الحكيم فى إرضاء زوجته ، فقد كانت لها القدرة على إقناعه بما تريده ، ولها فى ذلك إشارات وتلميحات ، فمثلاً عندما يطلب منها أحد أبنائها شيئاً لا تريد الاستجابة له ، كأن تطلب منها زينب ، التى كانت تسميها « سوزى » على اسم بطلة الحكيم فى « عصفور من الشرق »، أن تخرج لزيارة صديقة لها ، أو للفسحة ، أو لأى سبب آخر ، فإنها لا ترفض ، ولكنها تعلق موافقتها على موافقة توفيق الحكيم باعتبار أن الكلمة الأخيرة له ، فتحدثه برغبات أبنائها التى لا توافق عليها ، بطريقة لا تجعله هو الآخر يوافق ، فتقول له بشأن خروج زينب : قال يا توفيق ، سوزى تريد الخروج » ؟ ! ، وعندما يسمع أحد الأبناء ، أمهم تنادى والدهم باسمه مجردا ، فمعنى هذا أنها تشير إليه ألا يوافق ، لأنها فى الأحوال العادية كانت تناديه حينما تدلله فتقول له « محسن » ، اسمه فى

« عودة الروح » ، والذى نقشته على خاتم الزواج ، كما كانت تناديه بقولها « يا بابا » ، كالأولاد ، ربما لأنه كان فى ظنها والد الجميع ، وكان الحكيم أيضاً يحترمها ، ولم يحدث أبداً أن شاهد هما الأولاد فى حالة شجار ، وكان الحكيم لا يناديها باسمها مجرداً ، ويبدو أنه كان متأثراً فى ذلك بوالده الذى لم يسمعه طوال حياته ينادى أمه باسمها ، وكانت هى تخاطبه بإسماعيل بيه ، أما توفيق الحكيم فكان ينادى زوجته باسم « ماما » ، أو يقول لها « حضرتك » ، فالحكيم محافظ جداً فى علاقته الزوجية ، ولم يحدث أن اصطحب زوجته فى نزهة أو مناسبة عامة أو سار بها فى الطريق العام ، وإن كان قد اصطحبها معه مرتين خارج مصر ، الأولى ١٩٦٠ فى باريس حيث احتفل معها بعيد زواجهما الرابع عشر ، ودعا نزلاء الفندق الذى كان ينزلان فيه إلى « تورتة » ذلك الاحتفال .

والمرة الثانية حين اصطحبها إلى لندن ١٩٧٢ ، حيث أشعرها هناك بما لم تكن تتوقعه من التواجد معها فى كل لحظة وكل مكان ، فى المسرح ، والمقهى ، والمعرض ، وكانت تساعده على ذلك بعقلها المتفتح واستعدادها الثقافى للاستجابة لكل مظاهر الحضارة ، وعندما عادت كانت تقول لأولادها إن بابا توفيق كان يعاملها كملكة متوجه .

لقد كان هذا منه تعبيراً عن تقديره للزوجة التى كانت قلبا كالنبع يريح رأس المفكر الكبير ، ولذلك كان إذا شعر بأى ظلم يقع عليها حتى ولو كان من حماتها ، التى هى أمه التى يحبها ، فإنه كان يقف إلى جوار زوجته ، عندما تمارس أمه دور « الحماة » وتضطهدها ، مما يجعل الحكيم لا يستطيع أن يتحمل الموقف ، فينحاز إلى زوجته اعتقاداً منه أنه يحقق العدل بذلك ،ولهذا لم تكن زوجته تشعره ، ولا هو يشعرها بتدخل أحد من أسرتيهما فى علاقاتهما الزوجية ، أما كيف حدث هذا ؟ فقد سأل التلميذ ؟ وأجاب توفيق الحكيم : تركتنى زوجتى بحرية تامة فى التزاور ، فلم أكن

أزور أحداً من أسرتها لأنها شعرت أنى أيضاً لا أزور أحداً من أسرتى ولا أطالبها بذلك ، و لا تجعل للأسرة من الطرفين أى تدخل فى علاقتنا الزوجية » .

ورغم الهدوء والسكينة اللذان أحاطت بهما الزوجة ، الحكيم ، إلى درجة أنها كانت تجبر الأولاد على احترام عزلة أبيهم ، فتنبه عليهم ألا يدخل أحد حجرته أو يقترب منها ، إلا أنها حينما وجدته مشغولا أكثر مما يجب ، أرادت أن تنبهه عندما بلغ ابنهما « إسماعيل » الثالثة عشرة من عمره ، إلى أنه أصبح فى حاجة إليه أكثر من حاجته إليها ، وكانت تلك من اللحظات النادرة التى يثور فيها عليها ويقول لها : أنها عاطفية أكثر من اللازم . ولذلك حينما كان يرى عاطفة الأمومة مسيطرة عليها فى تعاملها مع الأولاد ، بدرجة يشعر منها أنها تؤدى إلى التدليل الذى يؤدى إلى إفسادهم ، كان يقول لها :

ياريت يكون عندك بعض الأنانية » ! ولعل هذه الأنانية ، التى كان يريد الحكيم أن يكون منها شىء فى تركيب زوجته ، كانت هى من بعض مكونات شخصيته كجزء من محافظته على نفسه بألا يسرف فى عواطفه ، ألا يحمل نفسه مشاكل أو هموم تؤثر على قدرته على العطاء الأدبى والفكرى ، ولو كان قد فعل لخسرنا نحن توفيق الحكيم الفنان ، ولكنه فى النهاية شعر بخسارته لنفسه ولأسرته ، وكان الندم لا يفارقه إلى درجة أنه أعلن فى حديث صحفى على رؤوس الأشهاد « لقد قتلت زوجتى وقتلت ابنى ولا أعرف لماذا أعيش حتى الآن » .

وإن كان الحكيم قد حاول فى أواخر حياة زوجته وابنها ، أن يقترب منها ويعوضها عما جفت به عواطفه تجاههما ، فإن الزوجة كانت أكثر فهماً وتقديراً لرسالة زوجها ، من فهم وتقدير ابنها لتلك الرسالة ، كانت الزوجة مرتبطة بالحكيم ارتباط الروح والقلب والعقل ، وإن لم تسأله أن

يعطيها بعض وقته إلا أن يكون ذلك العطاء لأبنائها ، الذين مهما كانت حاجتهم لحنان الأم فلابد من شعورهم بتواجد الأب معهم ، أما شعور الزوجة بتواجده فهى تقدر وضعه كفنان وتساعده على التفرغ له ، وتعمل على راحته وتطمئن عليه إذا تأخر عن موعد عودته من مكتبه ، فتتصل به تليفونياً إذا جاوزت الساعة الثالثة بعد الظهر .

وحينما مرضت كان الحكيم يحاول ألا يشعرها بتأخيره ، فكان يقوم بتأخير الساعة لمدة ساعتين ، أو حسبما تقتضيه الظروف ، فيعود مثلاً فى الثالثة أو بعدها ، وتكون الساعة مضبوطة على الواحدة ، ولكن الزوجة رغم مرضها كانت تشعر بتأخر زوجها ، وتسأل إبنتها الكبرى « ناجا » عن الساعة فتخبرها بما ضبطها عليه الحكيم ، وتحضرها لها لتتأكد بنفسها ، فتطلب منها إحضار المصحف لتقرأ لها سورة « يس » ، وتستعيدها مرة وثالثة ورابعة حتى يحضر زوجها ، فيدخل عليها هاشا باشا ضاحكا وهو يقول لها :

كيف حالك ... وحشتينى .. عامله إيه ؟ .

فتسأله عن تأخره ، فيقول لها : أبداً أنا لم أتأخر أنظرى ها هى الساعة الآن الواحدة » . بينما تكون الساعة الثالثة وأحيانا الرابعة ، يفعل الحكيم ذلك حتى لا يجعل زوجته تحس بغيابه عنها فى مرضها ، لأنها لم تكن تأكل أو تتناول الدواء حتى يحضر ، لأنها كانت تظل رغم شعورها بالجوع تنتظره حتى يعود ، وكان يؤكد لها أن شعورها بالجوع هو علامة من علامات تحسن صحتها ، رغم أن ذلك كان من علامات تقدم الساعة التى كان يؤخرها .

ويجلس الحكيم أمام زوجته على سريرها ، ويتناولان الغداء على منضدة بحجرة نومها ، وبعد الغداء يجلس بجوارها على السرير ، يتحدثان أو

يشاهدان التليفزيون ، حتى يغلبهما النوم ، وحينما تدخل عليهما « ناجا » للاطمئنان على أمها تجد منظراً عجيبا :

الحكيم نائم بجوار زوجته على غير استعداد للنوم وقد أسدلت طاقية رأسه على عينيه ، والتليفزيون لازال يبث إرساله على « الفيلم » الذى لم يستكملا مشاهدته ، فتنبه « ناجا » الحكيم ،

فيقول لها وهو بين النوم واليقظة :

إيه .. فيه .. إيه ؟ وظل الحكيم خلال الخمس سنوات الأخيرة من حياة زوجته طيلة فترة مرضها يأتى من مكتبه ليجلس معها ولا يفارقها إلا بعد أن تنام ، وقد ينام معها دون أن يشعر ، وتحس الزوجة وقد طال مرضها ، أنها صارت عبئا على المفكر الكبير الذى لم يكن يشغله شىء عن نفسه ، فإذا هى تشغله بمرضها طيلة الوقت ، مما جعلها تقول له :

المفروض إنى كنت أحملك فى شيخوختك .. فإذا بك أنت الذى تحملنى » .

فقد كان يقول لها باعتبارها أصغر سنًّا منه : أنت العكاز الذى سأستند عليه فى شيخوختى .

فإذا به يكون « العكاز » الذى تستند هى عليه طيلة مرضها ، ويظهر لها إستعدادا لتحملها لم تكن تتوقعه ، مما كان أبلغ تعبير لها عن مودته وحبه لها .

ويسأله التلميذ : ألم تحاول التعبير عن نفسك لزوجتك بكلمات الحب ؟ فيقول : عودتها أن كلمات الحب توضع على الورق فقط ، ولاداعى لأن نتبادلها بالكلام لأن الحب يجب أن يظهر مجسدا فى مواقف تدل عليه ، وليس كلمات ينطقها المحبون كما فى الروايات » . لأن طبيعة الحكيم ذاته لم تكن تميل إلى إظهار المشاعر والعواطف ، ولكنها تظهر فى المواقف ، كما حدث وأشعر زوجته فى مرضها بتواجده معها ، فلم يشكو أو يتبرم وكان

مثالا للوفاء فى مثل هذه الظروف ، وهو بذلك يشبه والده الذى ظل مشغولاً بالعمل على شفاء زوجته وقت مرضها ، غير ملتفت لنصائح أقربائه ، بالزواج من أخرى صحيحة بدلا من زوجته المريضة، ولذلك فقد أدركت منه مبلغ تقديسه للواجب وحرصه على الزوجية ، وقد أخلصت له هى أيضا وأحبته كثيرا ، وكذلك كان الحكيم مع زوجته ، فتحملها فى مرضها بكل الرضى والتقدير ، وفى خطاب نادر جدا ومثير جداً ، ضبط توفيق الحكيم وهو يكتبه إلى زوجته وهى بالمستشفى ، يبثها فيه حبا وغزلا يغنى عن أى تقديم أو تعقيب عليه .

يقول الحكيم فى خطابه غير المؤرخ على ورقة من القطع المتوسط ، كاد أن يأتى عليها طول النسيان :

زوجتى العزيزة

صباح الخير . ولا أحرمنا الله من صباحك المضئ . فالبيت فى ظلام بدون وجودك فيه . فأنت فيه الشمس والقمر معا . الشمس فى نهاره والقمر فى ليله . نسأل الله أن لا تطول غيبتك عنا . وأن تعودى إلينا بتمام صحتك . ونحن فى غاية الاطمئنان إلى الأيدى التى ترعاك وتعمل على شفائك بإذن الله . فبلغى الشكر عنا إلى المتولين أمرك فى علاجك وعلى رأسهم الدكتور الشهم البارع محمود سامى عبد الجواد . ثم لمن وجدت منه العناية بك ممن فى المستشفى . ولك منى ومن الجميع هنا التحيات التى لاعدد لها .

توفيق

وخلال فترة مرضها الطويل الذى مكثته بالبيت لم يضجر الحكيم أو يتأفف بل كان مثالا للزوج الكريم حتى جاء يوم وفاتها ، فرفضت تناول الغداء حتى يعود من مكتبه فى الساعة الثالثة لكى تتناول الطعام معه ، وبعدها همست فى أذنه :

أنت حاتحزن عليَّ ؟ ! ثم شهقت مرتين : آه .. آه . وماتت .

وقد كتب توفيق الحكيم ساعة وتاريخ وفاة شريكة حياته ، فى برواز أسود بغرفته الخاصة :

يوم الوفاة ٢٩ إبريل ١٩٧٧ الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر .

ورافقها الحكيم فى عربة الإسعاف حتى مثواها الأخير .

وانطفأ بذلك المصباح المضئ فى حياة شيخ الكتاب .

وعندما سأله تلميذه عما إذا كان يفكر فى إضاءة مصباح زوجى جديد ؟ قال :

لا يمكن أن أتصور ذلك أبدا ، فقد أخذت حظى من الزواج ، وليس هناك ما يدعونى إلى ذلك مرة أخرى ، وسأظل وفيا لزوجتى لعل ذلك يغفر لى الاهتمام الزائد بعملى الأدبى ، مما عزلنى كثيراً عنها وعن الأولاد .

الفصل الثالث

إبنى بثلاث شخصيات

إسماعيل

أنا لا أطالب لأسباب انفعالية صبيانية بل لأسباب أهم من ذلك وأعمق .

- هذه مسائل خطيرة ولابد أن توضع على آساس قانونى سليم .
- أرجو ألا تطلع أمك على هذا الخطاب .

عندما حاول الحكيم أن يلتفت إلى ابنه اسماعيل ويسدى إليه النصيحة ، جاء ذلك متأخراً ، ولم تعد أى نصيحة منه مجدية .

وسأل التلميذ ، الحكيم : ألم تحاول الاشتراك مع أم اسماعيل فى توجيهه وإرشاده ؟

فيقول : لم تكن تريد أن تزعجنى عن عالمى ، لذلك فوجئت بأن ابنى قد اتجه إلى الموسيقى دون أن أعرف ، وحاولت أن أعمل على توجيهه ، واتفقت ووالدته على تخصيص يوم فى الأسبوع نجتمع فيه لمناقشة كل ما يتعلق بأمور الأسرة ، ولكن الحقيقة أن زوجتى يرحمها الله لم تكن تريد أن تشغلنى بأى شىء عن فنى إحتراما لشروط زواجنا ، وفهمت أن الحرص على راحتى معناه أن أبتعد عما يخص الأولاد وحياتهم ، وكان طبعى وجفاف عاطفتى مشجعا لها على الابتعاد بالأولاد عنى ، وكانت علاقتهم بها هى وحدها ، لم يشركونى فى حل مشاكلهم ، الأمر ليس خطيراً فيما يتعلق بالبنات فهن سيتزوجن ويذهبن لبيوتهن ، أما فيما يتعلق بالولد فالأمر يصبح على قدر كبير من الأهمية ، كانت تجلس مع إسماعيل تحل مشاكله وتتبادل معه الرأى وتعطيه المال ، لم تضع فى الاعتبار أنه فنان مثلى وربما يستفيد من خبراتى ، ولارتباطه بها كان يجبر أمه على حضور الحفل الافتتاحى يلقى عليها نظراته الأولى كما لو كان يستمد منها القوة ، وإذا لم تحضر الحفل الافتتاحى يعتذر هو عنه ، كان الارتباط بينه وبين أمه قويا للغاية ، وبينى وبينه ضعيفا للغاية » .

ولذلك كانت العلاقة بين توفيق الحكيم وابنه إسماعيل تمثل التصادم بين الأجيال .

الحكيم يرى أن جيل إسماعيل أقل من الجيل الذى سبقه ، صبراً وجلداً ، وأقوى منه رغبة فى كل تغيير وأعنف ثورة على كل ثابت مستقر ، فما بالك والحكيم يفصله عن ابنه ثلاثة أجيال ، فلازال الأب الكهل يعيش بأفكار أهل الكهف ويتردد فى سمعه ما كان يقوله له كل صديق لوالده :

أبوك يشكو لطوب الأرض فزعا من أن ابنه قد أدركته حرفة الأدب !

ولكن الحكيم هو نفسه قد تمرد على دراسة القانون التى اختارها له أبوه ، واشتغل بالأدب فى شارع الفن ، وها هو ابنه إسماعيل يختار الموسيقى حرفة من حرف الفن .. فهل تغير الموقف ؟ لكأن تاريخ حياة الحكيم يعيد نفسه مرة أخرى فى شخص ابنه إسماعيل ، الذى بدت عليه أعراض الفن منذ طفولته ، تشجعه والدته وتهديه فى عيد ميلاده « جيتارا » ، ولم ير الحكيم فى الأمر خطورة وظنها هواية عابرة لا تلبث إلا أن تتوارى أمام هواية أخرى جديدة ، ولكنها كانت موهبة كامنة تعبر عن نفسها يوما بعد يوم ، فالموسيقى تجرى فى إسماعيل مجرى الدم ، ولا أمل فى أن تفارقه أو يفارقها ، ومضى يشق طريقه بنفسه وسط ضباب من الفتور يحول بين الحكيم ، وبينه ، وفى الأحيان التى كان يجرى فيها إسماعيل تدريباته بالمنزل ويعلو صوت آلاته وأنغامه ، كان الحكيم يغلق على نفسه حجرته ، بينما كانت والدة إسماعيل تشجعه وتتحمس له ، ولكن هل يغلق الحكيم نفسه ويسد أذنيه عما يراه من صخب ابنه ، أو يحاول أن يفتحها ويفهم ماذا يفعل لعله يلتقى به ولو فى منتصف الطريق ؟ . وجرب أن يذهب مرة لحضور إحدى حفلات ابنه الموسيقية باقتراح من هيكل ، ولكن ذلك لم يكن كافيا لكى يغير الحكيم نظرته تماما رغم نجاح ابنه وفرقته الموسيقية ، فقد كانت عاطفة القلق عند أب كالحكيم تغلب عاطفة الرضا ، بل قد وجد فيما بعد ما يعزز قلقه حين رأى تدهور أحوال الفرقة واستغلال البعض لابنه ، وانصراف الناس إلى عصر

جديد تغيرت فيه نوعية الجماهير التى كانت تسمع موسيقى إسماعيل ، فقد طغت جماهير شارع الهرم وملاهيه على كل شىء فى كل مكان ، مما جعل إسماعيل يترك فرقته تعمل بدونه وتأخذ هى الأجر وتترك له القليل الذى تسمح به ، فقد اعتزل إسماعيل الموسيقى حزنا على ما آل إليه حال الجمهور ، فلا يسمح لنفسه أن يعزف لجمهور لا يهمه الموسيقى بقدر ما يهمه السهر والهزر .

وقد وجد الحكيم فى ذلك مدعاة لكى يقرر لنفسه أنه كان محقا فى تخوفه من اشتغال ابنه بالفن ، ذلك الطريق الشائك غير المأمون ولا المضمون ، وحاول الحكيم أن ينبه ابنه وينصحه لكى يكون له موقف مع فرقته ، ونفسه وشخصيته ، ولكن النصيحة فى الغالب تكون ثقيلة ، وأحيانا تورث الخصومة ، ووجد الحكيم البديل عن الكلام ، بكتابة رسالة إلى ابنه ، خطها بالقلم الرصاص على ورق متوسط الحجم ضارب إلى الاصفرار ، وتركه دون توقيع ، ليقرؤه إسماعيل دون أن يواجهه ، لأنه كان يتوقع أن يكون رد الفعل سلبيا ، فتركه ليقرر لنفسه ما يراه صائبا ، ويكفى الحكيم أنه سجل موقفا ، فكتب رسالة يسدى فيها النصح إلى ابنه ، على الأقل إرضاء لنفسه ، أو إشعارا لها أنه قد فعل ما يجب عليه أن يفعله أب تجاه ابنه ، وفى رسالته يحاول أن يصلح ما أفسده الدهر ، ولكن هيهات فقد قضى الأمر ، ومع ذلك لا بأس من المحاولة مع حرص الحكيم أن يتم ذلك بعيدا عن أم إسماعيل ، وألا يعرف بسر الخطاب إلا زوجة ابنه « زيزى » ، زوجته الأولى ، فلم تكن معينة له على السير فى طريق الفن ، بل كانت تعوقه عنه بتشجيع من أسرتها التى لم تكن مرحبة بارتباطها بفنان ، بينما هى خريجة تجارة وأرادت أن تفتح مشروعا لهذا الغرض ، ودار الصراع بين الفن والتجارة ، فحدث الانفصال الذى أضطر إليه إسماعيل ، مما ترك أثرا فى نفسه وقلبه ، فقد كان يحبها ،

ولكن حبه لفنه كان أقوى ، وتشاء مفارقات القدر أن تموت « زيزى » بعد وفاة إسماعيل بسنة واحدة بعد أن كانا قد افترقا فى الحياة ، ليجمعهما الموت .

وقد وجد الحكيم فى زوجة إسماعيل « زيزى » عونا له لنصح ابنه ، فقد كان رأيها من رأيه ، وفى رسالته إليه يحلل شخصيته ويحاول أن يفيده بخبرته .

يقول توفيق الحكيم :

اسماعيل

أنا لا أخاصمك لأسباب انفعالية صبيانية بل لأسباب أهم من ذلك وأعمق . لأنها تتعلق بما أعتقد أنك أنت نفسك تعانى منه وتقلق فى أعماقك بشعورك الواعى أو غير الواعى . ذلك هو شخصيتك التى تتصادم فيها ثلاث شخصيات مختلفة فى وقت واحد وهى :

١ – شخصية الرجل الذى يفكر تفكيرا سليما ويفهم كل شىء فهما جيدا . ولكن إرادته أضعف من أن تقرر ما ينفعه وتتجنب ما يضره .

٢ – شخصية الفنان الموهوب المتراخى التارك لعصابة فرقته أن تأكل نتيجة عرقه وهو عاجز عن حماية نفسه ومستقبله .

٣ – شخصية الطفل فى حجر أمه الذى يلقى عليها كل مسئولياته وديونه وطلباته .

ومن مجموع هذه الشخصيات تقوم شخصية واحدة غامضة المصير فى نظر صاحبها . وهى تعذبه أحيانا وتقلق نومه وأحلامه وهو يحاول إبعادها بإغراقها فى (....) أو السهر أو النوم ..

هل لهذه الحالة من حل أو علاج ؟

أعتقد أن الحل أو العلاج بسيط . ولا يحتاج إلا إلى شىء من التنظيم .

وخاصة فى البند الثانى والثالث ، فإذا استطعت أن تواجه مسئولياتك شعرت فى الحال أنك رجل ولم تعد طفلا ولا طالبا . وهذا سيريحك نفسيا . لأن من أسباب قلقك النفسى هو أنك تعرف أنك بلغت مبلغ الرجال وتتصرف بدون شعور تصرف الطفل والطالب الصغير . وهذا التنظيم الذى يعالج نفسيتك هذه ويجعلك طبيعيا فى نظر نفسك وجديرا باحترامها لن يكلفك أكثر من أربعة جنيهات من دخلك اليومى (فى أوقات شغلك) وذلك لمواجهة ديونك (التى تتحملها عنها والدتك خصما من مصروف الشهر ولا تنام الليل بسببها) وليس فى مواجهتك لديونك هكذا إراحة لوالدتك فقط بل لك عندما تشعر أنت براحة الرجل الذى لم يعد عالة على أهله . ولكن هذا يقتضى الكسب المعقول الذى ينتج لا من عملك الفنى فقط الذى تتفوق فيه على أفراد فرقتك بل من حاصل استغلال الآلات الضخمة التى دفعت أنت فيها وحدك آلاف الجنيهات . وإذا كنت غير قدير على إقناع فرقتك بذلك فما عليك إلا أن تتخذ لك محاميا تحيل عليه هو كل الشئون المالية للفرقة . وهو يفحص الوضع من الوجهة القانونية ويضع كشوف توزيع الإيراد طبقا لما تقضى به القوانين . ذلك لأن فرقتك وأنت نفسك لم تزل تعالج أمر الفرقة كما لو كانت فرقة هواة من طلبة المدارس . فى حين أنك أصبحت رجلا محترفا برأس مال يقرب من العشرين ألف جنيه ، وعليه أقساط ديون . وهو وضع لا يمكن أن يعالج كما تريد الفرقة معالجة صبيانية .

يتكالبون فيه على العقد ينهشون أرباحه ويتركون لك مسئولياته وديونه . هذه مسائل خطيرة ولابد أن توضع على أساس قانونى سليم مع محاميك . والمحامى لن يكلفك شيئا ولكنه سيحميك من الوقوع فى أخطار الارتجال أو التسرع . وخاصة عند الارتباط بعقود مع الغير من أصحاب الأعمال والملاهى الماكرين المخادعين . حياتك كلها ستتغير تغيرا مدهشا

إذا نظمتها هذا التنظيم ووضعتها على هذا الأساس السليم . وستتحسن نفسيتك وتشعر بصحة شخصيتك ولقد كانت لك رجولة وإحساس بالمسئولية فى يوم من الأيام . يوم كان عقد الفرقة كله فى الكوكيت نحو ١٥ جنيه وكنت تدفع لى منها كل يوم ٧ جنيهات لسداد كمبيالات(*) . وكنت أمامنا جميعا مثال الشخصية المحترمة المقدرة لمسئولياتها . وإياك أن تفهم من ذلك أن المقصود هو مطالبتك بشىء لنا . فالبيت بيتك أنت وزيزى . ولكن المقصود هو إشعارك بأنك تنهض بمسئولية رجل يتحمل ديونه وحده ويفكر فيها بمفرده . كما أرجو ألا تطلع أمك على هذا الخطاب أو تحدثها بما جاء فيه . مراعاة لصحتها . وأنا لم أتحدث فى ذلك إلا مع زيزى وحدها وهى متفهمة تماما لكل ذلك بل إن آراءها كانت تسبق آرائى وتطابقها تماما . وعلاجها يهمنا جميعا . فكر فى ذلك جيدا وناقشنا فيه أنا وزيزى عند اللزوم .. ونرجو لك التوفيق .

* * *

ولكن كما يقولون فقد سبق السيف العزل ، فقد سارت الأمور إلى نهايتها المحتومة ، فقد تدهورت صحة إسماعيل الذى كان يشعر بالغربة عن عصره ، حتى لكأنه تنبأ بمصيره ، فقد كان يرسم جمجمة وتحتها يكتب « أنا » ، واقتطفت روحه وهو فى عز الزهور ، وكانت صدمة للحكيم لم يصدقها أحد ، ولكن خطاباته إلى أرملة ابنه ، زوجته الثانية كانت مليئة بالأسى والحزن(**) ، ولم يكن الحكيم نفسه مصدقا أنه لن يعد يرى إسماعيل مرة أخرى ، ولذلك حرص على إلقاء النظرة الأخيرة عليه وهم

(*) كان إسماعيل إذا أراد مبلغًا من المال أعطاه والده ما يريده مسجلًا فى كمبيالات مستحقة السداد .

(**) القصة كلها فى كتاب اليوم « رسائل خاصة جدًا » للمؤلف .

يضعونه فى مقبرته ، ولم يكن بقدرة أحد أن يحتمل الصورة إلا صديقه المستشار محمد سعيد العشماوى بينما ظل نجيب محفوظ بعيدا ، واعتذر عن عدم تجاوزه لمقامه بأن الحكيم والعشماوى وكلاء نيابة تعودوا لطبيعة عملهم أن يروا الجثث ، أما هو فيصعب عليه أن يحتمل رؤيتها . وكل من رأى الحكيم فى هذا الوقت وجده صلبا متماسكا ، ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بتماسكه طويلا ، فراح يؤنب نفسه ويلومها بأنه كان السبب فى قتل إبنه وطلب منه السماح والغفران .